قراءات

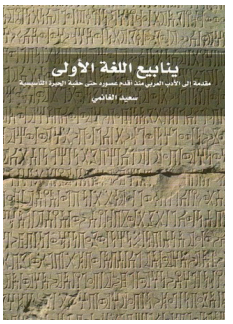

مجموعة من الباحثين

ينـابيع اللغـة الأولى
مقدمة إلى الأدب العربي منذ أقدم عصوره حتى حقبة الحيرة التأسيسية
المؤلف: سعيد الغانمي
(هيئة أبوظبي للثقافة والتراث ٢٠٠٩)

منـذ عنوانه التوضيحي «مقدمة إلـى الأدب العربي منذ أقدم عصوره حتـى حقبـة الحيـرة التأسيسـية»، يضـيء لنـا المؤلـف فحـوى الكتاب الرئيسـي، إنه رفع الغبن عن دور الحيرة التأسيسـي في الحضارة العربية الإسلامية، بصورة عامة وباللغة العربية بصورة خاصة. الكتاب المؤلف من سبعة فصول، بطبعة أنيقة يهديه المؤلف إلى العلامة جواد علي، بهذه الكلمـات التي تدلّ على وفاء المُهدي «إلى روح العلامة الراحل: جواد علي، لم تقف معك مؤسسـة، في إنجاز مشروعك الكبير بل كنتَ فردًا. ما أكثر العقبات التي تخطيتها! لم تخلف مدرسةً، ولم تبن أكاديميةً لكنَّ عملك وحده كانَ مدرسـةً شـامخة، وأكاديميةً بعدة طوابق». وصاحب كتابـ«المفصـل فـي تاريـخ العـرب قبل الإسـلام» و«تاريـخ الصلاة في الإسلام» و«المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية» وغيرها يستحق

منّا التقدير والاحترام لما بذله من مجهود علمي في ثقافتنا العربية، ومازال مفصّله الأكثر مرجعية علمية رغم مرور أكثر من ربع قرن على صدوره.

في الفصل الأول «دورات اللغات الأدبية» يوضح المؤلف عمله بتبديد النظرة (السكونية) اللاتاريخية للغة العربية التي تبنّاها من يرى أن اللغة العربية الفصحى واحدة من أقدم اللغات التي لم تخضع للتطور أبدًا، وينبغي البحث فيها عن «أصل» اللغات جميعًا، مبيّنًا أن ثمة «موجات» من العربيات الأخرى التي تركت بصمتها عليها، وأن العرب كانوا يعيشون في العراق ومصر، ولكي يتوصل إلى مخطط لبيان «تاريخية» اللغة العربية، يبرز أهم الحقب «اللهجية» والثقافية التي أفلحت في إنشائها الدول العربية القديمة، وصولاً إلى آخر حقبة معروفة، وهي حقبة الحيرة التي نشرت العربية الفصحى، وهي آخر لهجة عربية معروفة. وهذه الحقب تنقسم إلى:

أ- السلالات الجنوبية، وهي معان (معين) ومن أهم سماتها هو الوزن الصرفي للفعل (سفعل) إذ تحلّ السين محل همزة التعدية في الفصحى، والضمائر المتصلة فيها هي السين مثال (أبوسُ): (أبوه)، و(أبوسا): (أبوها) ليذكرنا المؤلف أن السين العربية القديمة كانت قريبة جدًّا من الشين مما يذكرنا بالضمائر في البابلية من دون شك حسب قوله.

قتبان: تشترك مع المعينية في الوزن (سفعل)، السابق على الوزن (هفعل) السبئي. وتحتوي القتبانية على علامة لتعريف الاسم المثنى في إلحاق (نيسن)، وعلامة لتنكيره هي إلحاق (ميو). والضمير المتصل هو السين وليس الهاء مثل المعينية. وأسماء الإشارة للبعيد هي: (هو) للمذكر المرفوع، و (هوت) للمذكر المنصوب، و (هيت) للمؤنث المنصوب. أما ضمائر الوصل فهي (ذ) و(ذو) للمفرد المذكر، و (ذت) للمؤنث، و (ذو) و (ذن) للمثنى، و (ذتو) للجمع، أو (أولو) أو (أل)، ومن أدوات الشرط (همو).

سبأ: دوّنوا لهجتهم في خط المسند الجنوبي الذي كان يتألف من (٢٩) حرفًا، وأهم خصائصها استعمال هاء التعدية بدل الهمزة في الفصحى، حيث يكثر لديهم الوزن الصرفي للفعل (هفعل). وأداة التعريف هي حرف النون في آخر الكلمة، والتنكير هي حرف الميم، فالملك بالتعريف هو (ملكن) وبالتنكير هو (ملكم).

حضرموت: تنفرد الحضرمية أيضًا بلهجاتها الخاصة التي قد تكون أبرز سمة فيها من الناحية الصوتية أنها تعامل صوتي الشين والثاء بوصفهما فونيمًا واحدًا، وليس فونيمين منفصلين كما هو الحال في اللهجات الأخرى. وكذلك تعامل الزاي والذال بوصفهما فونيمًا واحدًا، لا بوصفهما فونيمين متميزين، وهي مثل القتبانية إذ تضع السين بدل الهاء أو الهمزة للتعدية. وليس فيها سوى أداة نفي واحدة هي (أل)، وأداة التعريف، فهي (هن) في نهاية الكلمة، ولكن يبدو أن النقوش المتأخرة تستخدم النون فقط كما في بقية اللهجات الجنوبية.

ب - السلالات الشمالية وتشمل:

ثمود: أعطى الباحث موجزًا، ليخصّصَ الفصل الثاني لهم.

لحيان: هي مملكة تكونت في شمال الحجاز قبل الميلاد بعدة قرون، وقد عُثر على نحو (٤٠٠) نقش لحياني، في منطقة وادي العلا والخريبة، التي كانت قبل استيلاء اللحيانيين عليها منطقة لسكنى الديدانيين. تركوا كتاباتهم بأبجدية خاصة تشبه أبجدية المسند، لكنهم أخضعوها لتعديلات طفيفة، بسبب اختلاف لهجتهم، ومن الأمور المثيرة أن لديهم إلهين للكتابة هما (هَكُتْبي) و(هَنْأكتب)، ويرى المؤلف أن قلة ما وصلنا من نقوش اللحيانيين لا ينسجم مع هذا الاهتمام بالكتابة. وربما كان كثيرًا منهم- خارج المؤسسة الرسمية- يستعمل الخط الثمودي، الذي كان يمثل الخط الشعبي السائد على الرغم من تعاقب الحكومات والدول التي تستخدم خطوطًا أخرى.

الأنباط: وهم شعب عربي أفلح في تأسيس إمبراطورية قوافل مهمة، وقد أمكن للمؤرخين ترتيب قائمة باثني عشر ملكًا من ملوكهم، بدءًا من الملك حارثة الأول، الذي يرجح أنه تولى العرش عام ١٦٩ ق.م. وانتهاء بعام ١٠٦م.، حين زحفت فيالق تراجان على عاصمتهم البتراء لالتهامها في عهد رب إيل الثاني. وفي لهجتهم حضور أل التعريف.

الصفا: وقد عثر على كتاباتهم في مناطق واسعة تمتد من حماة في سورية إلى نهر الفرات في العراق، وإلى فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية فأعالي الحجاز. وقد تركت هذه القبائل العربية آلاف النقوش التي يتعلق أكثرها بقضايا شخصية. ومن خلال كتاباتهم أمكن استخلاص فكرة عن ثقافتهم ودياناتهم وقبائلهم وتصنيف أنسابهم. وأقدم هذه الكتابات إلى القرن الأول قبل الميلاد، وبذلك تكون الكتابات الصفوية من عهد تبلغ مدته زهاء أربعة قرون. وهذه الكتابات تظهر اتساع المعجم اللغوي والأدوات اللغوية، ونوعًا من التسامح في أشكال رسم الحروف أكثر بكثير مما لدى الثموديين.

الحضر: عثر في الحضر على ما يزيد على أربعمائة نقش، بعضها مؤرخ، غير أن الكثرة الغالبة من هذه النقوش هي إهداء وصلوات، وهي مكتوبة باللغة الآرامية. لكن ملوك الحضر يسمون أنفسهم فيها ملوك العرب، وعبدوا ذات الآلهة التي عبدها العرب.

تدمر: استعملوا الآرامية لغة ثقافية شأنهم شأن الحضر والأنباط.

الحيرة: وهي أكثر مدينة يتناولها الكتاب، بل إن رسالة الكتاب هي في رفع الغبن عنها.

بعد تحليل المؤلف للعصبية والحقبة التأسيسية، والتوحيد الإمبراطوري والاستعارة الشمسية، يخلص إلى أن عمل الاستعارة الشمسية يظهر واضحًا جليًّا لدى ملوك الحيرة، وقد توافر للحيرة ما لم يتوافر لدولة عربية شمالية قبلها، إذ امتد نفوذها في العراق والشام والبحرين وعُمان منذ القرن الرابع حتى زاحمت اليمن ونافستها على بعض المناطق التي كانت خاضعة لها تقليديًّا. والثابت أن مُلْك الحيرة انتعش في زمن الملك المنذر في منتصف القرن السادس، حين ولّى ابنه عمرو بن المنذر- عمرو بن هند- على الحجاز. وقد ساعدت

التعدديـة الدينيـة في الحيـرة (يهود، مسـيحيون، صابئة، مانويـون ووثنيون) على غياب الاسـتعارة الملكية، التي تتطلـب وجود توحيـد إمبراطـوري وثني في الأسـاس، لكن الحيرة استثمرت توحيدًا آخر، هو التوحيد اللغوي، فقد شجّعت لهجتها الخاصة وفرضتها على القبائل التي دخلت تحت سيطرتها. هكذا تبنت قبائل العرب الشمالية لهجة الحيرة المعروفة باسـم اللغة العربية الفصحى، لغة أل التعريف، وعملت على اسـتقدام الشـعراء العرب من كل مكان في الجزيرة.

في الشـعر وإيقاع الجسد، يسـتنتج الباحث أن الشعر عند الثموديين، ليس كلامًا منمقًا أو فنيًّا فحسـب، بل هو كلام يتحرك على ثلاثة مسـتويات معًا: مستوى الجمالية اللغويـة الخاصة بالـكلام الفني، والتعبيـر الديني، الذي يعبـر فيـه الكلام عـن شـعيرة دينيـة أو طقـس احتفالي، ومستوى حسي جسدي، يتوافق فيه إيقاع الكلام مع إيقاع الجسـد. ثم يعزز اسـتنتاجه بـرأي ابن رشـيق القيرواني، ومـن ثم يُعرّج على مفهوم الرجز، ثم يوضح التوافق بين الإيقاعين اللغوي والجسدي بالعودة إلى الفنون الشعبية التلقائية كما تتمثل في (الهوسة) عند عشائر العراق.

وفـي المصطلحات الأدبيـة القديمة: يعيدنـا للينابيع كعادتـه، فكلمة شـعر، هي «شِـر» السـومرية، و»شـيرو» البابليـة قـد ظهـرت فـي نظـام الكتابـة المسـمارية منـذ أول ظهـور الكتابـة. ولا يُعـرف بالضبـط أيهمـا أقـدم، والمصطلح البابلي موجود في العبرانية «شير» والآرامية «شـور» وكلها فقدت حرف العين، مستندًا على ما أورده طـه باقـر. ونفس الشـيء ينطبق علـى كلمـة أدب. وهذا المصطلحـان يظهـران فجأة فـي الأدب العربي في حقبة الحيرة التأسيسـية، ويتسـاءل: هل يعني ذلـك أن الحيرة استردتهما من التراث العراقي القديم؟.

العـرب والكتابـة: الكتابـة هـي أُس المَدَنيـة، إن لـم تكـن الأُس الأهم فيها، وهذا معنى مـا ذكره الباحث من أن الآثاريين والمؤرخيـن يطلقـون على عصـور ما قبل الكتابـة، عصورَ ما قبل التاريخ، ومعرفـة العرب بالكتابة الأبجديـة لا ترقـى إلـى أبعـد مـن القـرن السـادس فـي أغلـب الآراء القديمة، بينما تـرى الآراء الحديثة أن أقدم نمـاذج الخـط اليمني القديـم لا تتعدى القـرن الخامس قبل الميلاد. وبعد تحليل خط المسـند بفرعيه الشـمالي والجنوبي، حيث الأول كان شعبيًّا والثاني مؤسساتيًّا، ثم أحد أغرب ظواهر الثقافة العربية في جميع عهودها وهي ثنائيـة اللغـة، فهم كانـوا يتحدثـون بلغة عربيـة ويكتبون بالآراميـة، (رغـم أن كاتـب هـذه السـطور لا يـرى فرقًا كبيـرًا بين عربية الحضر وتدمر والبتـراء ونصيبين والرها وسـنجار وغيرهـا مـن المراكـز العربيـة في تلـك الفترة المبكـرة وبين الآرامية)، وبمن فيهم العرب المعاصرون الذيـن يتكلمون في حياتهـم اليومية لهجاتهـم الخاصة، ولكنهـم يتكلمـون اللغـة العربيـة الفصحى لغـة ثقافية، لينتقـل المؤلف إلى آليات الشـفاهية محللاً أثرها كصيغ جاهـزة فـي الشـعرية العربية حيث لا مسـافة بيـن الدال والمدلول.

فـي الفصـل الثاني «شـعرية النقـوش الثموديـة» يبدأ الباحـث مـن ثمـود فـي المخيـال الجاهلي حيـث تبدو «صورة أسطورية بالكامل» ثم ثمود في التاريخ، وتناقض

الإخباريين العرب بين اعتبار ثمود من نسل النبي إسماعيل (ع) وانتماء النبي صالح (ع) إلى فترة ما بعد نوح وقبل إبراهيم (ع). وأما لهجة ثمود فهي- حسب المؤلف- أقرب اللهجات العربية إلى اللغة الفصحى. والخط الثمودي، وقد عُثر على ما يزيد على ألفي نقش ما بين نجد والحجاز وسيناء والأردن وحوران والصفاة، تغطي نحو عشرة قرون، من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي. وتمتاز بثلاث خواص. أولاً: أنها تعبير عن مشاعر ذاتية، لا عن تقاليد اجتماعية. ثانيًا: أنها مشاعر تقترن بالتعدد والغزارة والانفتاح، لا بالضبط والدقة والتحديد. وثالثًا: أنها مشاعر تحاول أن تتخلص إلى أقصى حدّ من سلطة مؤسسة المعبد أو القصر الملكي.

أثر نبونيد: مبحث يُعدّ تكملة لمبحث المؤلف عن جذور كلمتي أدب وشعر، والتأثير العراقي وأهميته، حيث يجيب على الأسئلة التي دونتها في صدر هذه القراءة، عن استحالة النهضة العربية في الكوفة والبصرة وبغداد إن لم تكن جذورها موغلة في عمق هذه الأرض، فسيطرة نبونيد على تيماء ودومة الجندل وفدك وخيبر ويثرب، وتبشيره بدينه الجديد بين قوم يعبدون إله القمر، وأسهَمَ نقل العاصمة من بابل إلى تيماء نحو عشر سنوات، إلى تأثر سكان هذه المنطقة بالمَدَنية البابلية وتحويلهم من الشفاهية إلى الكتابة، فمقاربة التاريخ بين فتح نبونيد (٥٥٦-٥٣٩ ق.م.) وتبني الثموديين للكتابة في أواسط القرن السادس قبل الميلاد على رأي أكثر الباحثين، يحيلنا إلى الإقتناع بوجهة نظر الباحث، الذي لم يكتف بهذا بل راح يثبت لنا التأثر اللغوي والمصطلحات الدينية ذات الأصل الأكدي وهي ذات طابع مؤسساتي تفتقر لها ثقافة ثمود في القرن السادس قبل الميلاد بحكم بداوتها.

بعد تحليله لمجموعة من النقوش، والتي يتضح فيها الجهد المبذول للباحث، ينتقل إلى مبحث «شذرات شعرية» حيث نرى بعض النقوش بصيغ موزونة على الرجز والمتقارب والكامل. مما يعين أن جذور الشعر العربي تمتد لما قبل الميلاد أو لعدة قرون قبل الإسلام، بحيث إن الشعر العربي ليس عمره ١٦٠٠ سنة بل ربما أكثر من ذلك بعدة قرون.

وينشر الباحث ملحقًا هو وثيقة ثمودية عن وجود الفرعون نيخو، فتتجلى سخرية القدر حيث لا نجد أثرًا لهذا الفرعون الذي تولى العرش عام ٦١٠ ق.م. بعد وفاة والده الفرعون أبسماتيك، ولم يخلف ما يحفظ اسمه، وكانت المصادر الوحيدة التي تتحدث عنه هي الكتب المقدسة، وتاريخ هيرودوت، بينما فيلكوفسكي في كتابه «رمسيس الثاني وعصره» ينكره تمامًا، ليأتي عربي ثمودي بسيط، يكتب بخط يده المجهدة النازفة شهادة معاناته منه، والتي هي شهادته على وجود هذا الفرعون. فكانت كتابة مشي بن راعول الهارب من هذا الفرعون وجيوشه الجرارة، الوثيقة المادية الوحيدة على وجود الفرعون نيخو. وحسب تحليل الباحث فإن هذا النقش يؤكد وجود كتابة عربية ترجع إلى عام ٦٠٥ قبل الميلاد. مما يعني أن العرب عرفوا الأبجدية منذ القرن السابع قبل الميلاد، وحتمًا لم يكن مشي بن راعول أول

مَـن كتبَ، والسـؤال: لماذا اتفق الباحث مـع الآراء التي تـرى الأبجديـة العربيـة لا تتعـدى القـرن الخامـس قبل الميلاد، تارة وأواسـط القرن السـادس قبـل الميلاد تارة أخـرى، بينما هو لديه وثيقة تؤكد أن الكتابة العربية تعود للقرن السابع قبل الميلاد، رغم أن بعض الحروف أقرب للكنعانية منها للمسند الشمالي؟

الفصـل الثالـث «شـعرية سـبأ» فالـذي كان المؤلف قـد اختصره فـي الصفحتين ١٨ و١٩ مـن الفصل الأول نجـده هنـا وقـد توسـع فيـه علـى مـدى أكثر من سـتين صفحـة، وكعادتـه يحلـل النقوش بـل ويعيـد قراءتها أو بعضهـا، ليقودنا إلى نتائج واسـتنتاجات تدلل على جهد باحـث كمـا قال فـي المدخـل، فهـو الآثـاري واللغوي والناقـد والمـؤرخ، فنبحـر معـه في هـذه النقـوش التي تؤكـد مرة أخرى عراقة الشـعر العربي، ففي تعويذة كهل وترتيلـة ردمـان، وضـوح الـوزن والقافية، رغـم خروج بعض الأسـطر (الأبيات) زيادة أو نقصانًا، وهو ما يسميه العروضيون خرمًا أو خزمًا.

الفصـل الرابـع «الأنبـاط: اللغـة والأدب»: يفتتـح الفصـل بأصـول الأنباط، حيـث تقف ذات الحيـرة التي وقـف أمامهـا الباحثون حيـن الحديث عن الأقـوام التي تفتقـر للوثائـق الكتابية والآثاريـة، يجبـر الآثاريين على الاجتهـاد، وثمـة عـدة نظريـات حـول أصولهـم، فمـن الباحثين مَن يعدّهم اسـتمرارًا للأدوميين الذين سبقوهم في المنطقة نفسـها، ومنهم من يردهـم إلى أصول يمنية، أو أنهـم يرتبطون مع نبايوت في شـمال الحجاز، ومنهم مَن يردهم إلى أصول في جنوب العراق وشـمال الخليج العربي، وساد هذا الرأي منذ بداية عصر التدوين، إذ نجد روايات ترجـع أصل قريش إلى «كوثى» في العراق، كما نجـد روايات أخرى تزعـم أن الأنباط «عراقيون أتى بهم نبوخـذ نصر فـي القرن السـادس قبل الميـلاد، ثم ذهب فريـق إلى أنهم من جبل شـمر في أواسـط بـلاد العرب، ثـم سـرعان مـا نزحوا إلـى العـراق، وأقاموا هنـاك حتى دهمهم الآشـوريون فأخرجوهم من هنـاك. رغم الطابع اللاتاريخـي المهلهل لهـذه النظرية ولكنهـا وجدت لها بعض الدعم على أسـاس لغوي في الدراسات المتأخرة التـي بحثت في النقوش التي أطلق عليها النقوش العربية الأولـى، التي عُثر عليهـا في مواقع عراقيـة كثيرة في أور ونفـر وأبو الصلابيخ وأوروك. لكن الحقيقة التي لا لبس فيهـا أن الأنباط عرب خُلَّص، لغتهم اليومية العربية ولغة الكتابـة الآراميـة، ولديهـم إله خـاص بالكتابة هـو (تيم الكاتـب) والـذي يذكر الباحـث نقلاً عن ناشـر النقوش أنـه «انعـكاس للإلـه الآرامـي البابلـي نبو، وهـو كوكب عطـارد المعـادل للإلهـة اللحيانية (هنأكتـب) التي تعني الناسخ، الكاتب العظيم». هذا واستعمل الأنباط التقويم البابلـي، وقـد أحصيـت أسـماء ثمانيـة شـهور بابلية في تقويمهم، ضمن نقوش الحجر، وشهر آخر ضمن نقوش أم جذايذ، وهي: آب، آذار، آيار، طبت، نيسـان، سـيون، شباط، تموز، تشري.

قصيـدة الإله عبـادة: يتكـرر ذكرها فـي الكتاب عدة مرات، ثم يناقشها ويحللها في الصفحات (١٨٧-١٩٣) وتاريخ النقش هو مـا بين ٨٨/ ٨٩ ب.م. و ١٢٥/ ١٢٦ ب.م. وأرى فيمـا يخـص نقـش عبـادة والنقـوش التـي

سبقته أن سعيد الغانمي لم يكن باحثًا ومؤرخًا وآثاريًّا ولغويًّا ومؤرشفًا وناقدًا أدبيًّا وعروضيًّا بل كان شاعرًا في حسه الشعري بما يخص شعرية النقوش، وكأن الدراسات والبحوث والترجمة التي سرقته من الشعر، أعادته النقوش لنا في كتابه هذا شاعرًا من غير أن يكتب بيتًا واحدًا، بل إن التقطيع العروضي الذي أجراه على النقوش لهو أصعب من كتابة الشعر في أحايين كثيرة، ولا أبخس تحليله وتفكيكه لهذه النقوش أدبيًّا ونقديًّا.

في الفصل الخامس «تاريخية اللغة العربية»: يثبت الباحث بالأدلة والنقوش أن مكة كانت تابعة للحيرة، لكنه- وهو يستشهد بنقش أبرهة- يحيلنا إلى هامش لا أراه يليق بجهده المبذول فحين يكتب (ينظر نَص نقش أبرهة في كتاب: رحلة أثرية إلى اليمن، والمفصل) لم يذكر رقم الصفحة كما هو المفروض، أما المفصل فهو عشرة أجزاء (٩٠٠٠ صفحة) فكيف يكون البحث عن نقش أبرهة، مع هذا الهامش غير الدقيق، ليتكرر الأمر في الصفحة ٢٠٩، حين يتحدث عن الصيغ الفعلية، ويعترض على رأي العلامة جواد علي، فيذكر «لأن القتبانيين لم ينتشروا انتشارًا واسعًا في مناطق العربية الشمالية، وإن وجدت جالية منهم في الجيزة في مصر» فهنا لا نجد هامشًا، ولا ندري أين ذكر جواد علي هذا، مما اضطرني إلى مراسلته فأخبرني أنه لا يتذكر الصفحة الآن ولكن هذه المعلومة في الجزء الأول.

حين يتحدث عن لهجة قريش، يطرح العديد من الآراء، ثم يناقش العوامل الثلاثة التي تسهم على الأقل أحدها في نشر اللغة أو اللهجة، وهو العامل العسكري، فيثبت لنا أن قريشًا لم تنتصر بمعركة سوى معركة أُحد، والعامل الديني، حيث انعدام أي رواية تدل على أن قريشًا حاولت مرة نشر ديانتها، وأخيرًا العامل الثقافي، حيث لا ذكر لوجود مدرسة في مكة أو في الحجاز كله، بل إن القرشيين كانوا يرسلون أبناءهم للحيرة وبقية المراكز الحضرية في العراق وبلاد الشام ومصر. أما النهضة الأدبية فالحيرة كمملكة وعاصمة ومركز حضاري وسياسي وعسكري، ومنها انطلق المبشرون المسيحيون لنشر المسيحية في عموم شبه الجزيرة العربية. أي أن العوامل الثلاثة اجتمعت للحيرة بينما لم تجتمع لمكة، فنشرتْ عربية (أل) في عموم الحجاز ونجد وبقية المناطق باستثناء اليمن التي تكَفّلت قريش بنشرها فيه وخارج شبه الجزيرة العربية وامتداداتها. ويرى كاتب السطور أن الحيرة هي النواة التي مهّدت لانطلاق النهضة الحضارية العربية في الكوفة والبصرة. ويقودني في بقية الفصل إلى تاريخ دخول العرب للعراق، وهو بكل تأكيد تاريخ مبكر سبق الميلاد بقرون طويلة، ثم نقوش «العربية الأولى» وهي مجموعة النقوش التي يعرفها الباحثون باسم «النقوش الكلدانية للعربية الأولى» والتي عُثر عليها في أور، ويرجح أن تواريخها تتراوح بين القرنين التاسع والسابع ق.م.

في القسم الثاني من الفصل وتحت عنوان «الكتابة» نقرأ مبحثًا (ص ٢٤١-٢٥٣) يبدأ من الثورة الألفبائية الأولى، ثم من السينائية إلى العربية الأولى حيث يُشكك في رأي الباحثين باعتبار خط المسند الشمالي تطويرًا للمسند الجنوبي، مستندًا على التقاليد الثابتة للجنوبي

حيث الكتابة من اليمين إلى اليسار، بينما المسند الشمالي ظل يحتفظ بسماتٍ بالغة القدم، كالكتابة اللولبية والبدء من اليسار إلى اليمين وغياب الفواصل، مقترحًا أن كتابة العربية الأولى مستمدة من الكنعانية الأولى مباشرة، والمسند الجنوبي طورها بدقة تحت سلطة المعبد، بينما لم تتح للشمالي هذه السلطة. ثم يضع خريطة الكتابة المتعارف عليها، ومن ثم يقترح خريطة جديدة مبنية على ما تم العثور عليه من نقوش توضح أن الكنعانية هي الجذر الحقيقي للأبجديات. ثم يقودنا بهدوء الباحث الصبور إلى مباحث أخرى هي «من الآرامية إلى النبطية» و«من النبطية إلى العربية» ليختمها بمبحث «الكتابة والتنقيط»، موضحًا أن سبب التنقيط هو حاجة طبيعية لكثرة التدوين وانتشار وشيوع الكتابة.

«حقبة الحيرة التأسيسية» هو الفصل السادس (ص ٢٥٥ – ٣١٤)، وهذا الفصل يبدأ من التشكيلة السكانية للحيرة وتنوعها اللغوي والديني والإثني، موضحًا أن انتشار العرب في العراق بدأ منذ بدايات الألفية الأولى قبل الميلاد، وانضموا إلى الكلدانيين في صراعهم مع الآشوريين، ثم تمكنوا من تأسيس مملكة «الحضر» وأطلق ملوكها على أنفسهم لقب «ملوك العرب»، وإن استخدموا الأبجدية الآرامية وتأثروا بالثقافة الهلنستية، ومؤكدًا أن المسافة بين عربية ذلك العصر والآرامية لم تكن كبيرة جدًّا، بل ربما كانت المسافة بين لهجة ثقافية ولهجة محلية فحسب.

حين يتحدث في مبحث «سيادة عربية (أل)»، يؤكد على محاولته التي قام عليها الكتاب، وهي أن الشعر العربي – بمعناه العام – قديم قدم اللغة العربية، محللاً سبب صعود عربية (أل)، حيث نزوح قبائل عربية من الحجاز وسيناء والأردن إلى العراق، إضافة إلى موجة هجرة يمنية، مما جعل انتشار لهجة في عصر الحيرة تحمل عناصر أكثر اللهجات انتشارًا، وهذا هو السر في شيوع الترادف في هذه اللهجة الأدبية. وأما في مبحثه «قوة الحيرة العسكرية»، فيقول المؤلف: إذا كانت الحيرة في عهد مؤسسها الأول امرئ القيس بن عمرو قد بسطت نفوذها على العراق والشام والحجاز حتى وصلت به إلى حدود نجران، فإن الحيرة في زمن المناذرة المتأخرين لم تفقد نفوذها في الحجاز، ولتوضيح الأمر بخصوص القوة العسكرية، يستشهد بما ذكره الطبري عن عدد الدروع التي أودعها النعمان لدى هانئ بن مسعود، وتعليق مؤلفة كتاب «العرب على حدود بيزنطة وإيران» بيغوليفسكيا: «كانت أسلحة العرب على ما يبدو ذات أهمية للفرس، ولعل مردَّ ذلك إلى رغبتهم في الحد من مقادير الأسلحة التي وجدت تحت تصرفهم لا أكثر. غير أن هذا لا يمنع من وجود سبب آخر هو أن العرب آنذاك قد بلغوا بصناعة الأسلحة وآلات القتال درجة رفيعة، وأن هذا التقدم في التقنية العسكرية هو الذي أثار اهتمام الفرس بصورة خاصة». وبعد أن يتحدث عن نقش النمارة وهو شاهدة الملك امرئ القيس (ت٣٢٨م.) يتساءل: هل كان في الحيرة مدارس؟، ليستنتج – من خلال الإشارات التي ملأت بطون المصادر القديمة – أن الحيرة وبقية مناطق العراق كانت تحوي مدارس عديدة تسمى «الكتاب».

ثـم يعـرج علـى مصطلحـات الكتابة ومـن ثم نرجسـية «العصبيات» الصغيرة، فعدي بن زيد العبادي، والحكاية الشـعرية والبحـور المترجمـة، وهو فـي كل مبحث من هـذه المباحث يعود بنـا إلى الجذور السـومرية والبابلية والآشـورية، مثلما يتحدث عن موسـوعية شـاعر الحيرة عـدي بـن زيد، ويسـتنتج أن بحـر الهزج هـو تعريب من وزن رباعي التفاعيل في الفارسية كنموذج لما ذكر. وفي مبحث استقدام شعراء البادية يعدد أسماء الشعراء الذين قدموا للحيرة، ويرى أن السـبب هو قوة الكلمة وتأثيرها على قبائل الشعراء لضمان سيطرة الحيرة.

وجـاء الفصـل السـابع والأخيـر بعنـوان «الملحمـة الضائعة»، حيث ينتقل المؤلف من السومريين ليصل إلى فترة الحيرة التأسيسـية، متسـائلاً: هـل ثمة ملحمة عربية ضاعـت خـلال عملية المحـو التي تمارسـها كل مرحلة تأسيسية جديدة؟.

قراءة باسم فرات

وقفة مع كتاب الإسلام
للمؤلف بيتر هاينه
ترجمـة أسـامة الشـحماني
(٢٠١٢)

ولـد البروفسـور الألمانـي بيتـر هاينـه Peter Heine فـي العـام ١٩٤٤. درس الثقافـة الإسـلامية، وعلـوم الانثروبولوجيـا والفلسـفة في جامعتي مونسـتر، وبغداد مـن ١٩٦٥-١٩٧١. نال درجة الدكتـوراه عن أطروحته فـي تاريخ ممالك المسـلمين في السـودان فـي العصور الوسطى، ثمَّ حصل على لقب الأستاذية في جامعة مونستر العـام ١٩٧٨. أفـردَ العديـد مـن البحـوث والدراسـات والكتـب التي انصرفـتْ لتاريـخ الثقافـة الاجتماعية في العالم العربي، فضلاً عن تتبع وتحليل الظروف السياسية والاجتماعية الحديثة في العالم الإسـلامي، ومنها كتابه: الإرهاب باسـم الله، الاسـلام المتطرف، ٢٠٠١. عمل هاينه أسـتاذاً للدراسـات الشـرقية في جامعات مونسـتر وبـون وزيوريخ، وكان أسـتاذاً لكرسـي الثقافة الشـرقية والتاريخ الإسـلامي فـي جامعة هومبولـت الألمانية من العـام ١٩٩٤ إلـى ٢٠٠٩. يديـر منذ العـام ١٩٩٣ مركز الدراسـات الشـرقية الحديثة في برلين، والذي كان أحد مؤسّسيه.

إنَّ الحديـث عـن النشـاطات العلميـة التـي تنـاول